بحث عام | قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة | 11 أبريل 2017

أوليات الحوار واستراتيجيات المغالطة في الخطاب الديني والعلماني

الحوار التلفزيوني بين إبراهيم الخولي ووفاء سلطان؛ حول الصراع الحضاري – أنموذجًا –

نبيل محمد صغير
باحث جزائري

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

تمهيد:

تجسد خطاب الصراع بين التيار الفكري الديني والتيار الفكري العلماني، منذ الأزل[1]، في جميع الثقافات والديانات المختلفة، وقد استعمل كل طرف منهما، استراتيجيات للدفاع عن رؤاه وحججه.

بالنظر إلى الإطار الإدراكي الذي تجسد فيه هذا الصراع؛ فبعدما كان متجليًا في الكتب، بحيث نعثر على مؤلفات ومراجع مخصوصة بهذا الشأن، كانت هنالك سمات معينة، تميّز الحوار الفكري، بين الدين والعلمانية، في إطار الثقافة الكتابية.

وعلى سبيل المثال؛ في نسبة حضور المتلقي، الذي هو مغيب في الثقافة الكتابية، إلى حدّ معين، مقارنة بالثقافة التلفزيونية، التي تعطيه الدور المركزي في فهم الحوار، وتحليل مضموناته، وإدراك استراتيجياتها وتأويلها، هذا من جهة أولى، أما من جهة أخرى؛ فالثقافة التلفزيونية قد أعطت أبعادًا جديدة: (فكرية، وسياسية، واجتماعية) لهذا الصراع، سنحاول الكشف عنها في بحثنا هذا.

لا يروم بحثنا هذا، التنقيب عن خصائص الخطاب الديني مع غريمه العلماني، في إطار هذا المجال التقليدي (الكتابي)، الذي برز وتطوّر فيه؛ وإنّما يروم البحث في خصوصيات الحوار الديني العلماني المعاصر، في أبرز مصادره ومنابره، وقد اخترنا الخطاب التلفزيوني؛ لكونه يمكّننا من مشاهدة الخطاب، في سياقه العام والكلي، الذي يدور فيه، مما يتيح لنا جانبًا مهمًا في صناعة المعنى، وفهم أساسيات المحاججة لدى المتحاورين، في أثناء الدفاع عن رؤاهم، المؤطرة عبر خلفيات إيديولوجية معينة، ساهمت في بلورة بنية الخطاب والحوار.

ومن ثم؛ سنعمل على تحديد معالم وخصوصيات الخطاب الديني- العلماني، على مستوى وسيلة من وسائل الإعلام الأساسية، رغبة منا في إبراز معالم الاختلاف في توظيف الاستراتيجيات، الحوارية والحجاجية، المستعملة في هذا النوع من الحوارات الفكرية والدينية، مقارنة مع معالم الخطاب، وبدائله البرهانية في صيغته المكتوبة.

سيكون تحليلنا لهذه المدوّنة التلفزيونية، معتمدًا على مقاربة لسانية تداولية- تواصلية؛ حيث تحاول الكشف عن آليات الحوار الافتتاحي (Les Meécanismes conversationnels)، وعن مستويات الحجاج داخل ذلك الحوار، عبر تحليل الأفعال الكلامية المستعملة فيه، في تفاعلها الكلي،

1 بدأت ملامح الفكر العلماني مع بداية القرن الثامن عشر، في ظل الاضطهادات والممارسات القمعية، التي كانت تمارسها الكنيسة، إلا أن هذا لا يعني؛ أن ملامح فكر لاديني، لم تكن معروفة منذ القديم.

وفي تحوّلاتها الجزئية، نحو النزاع والمشاحنات اللفظية بين المتحاورين، هذا، أوّلًا، عبر النظر إلى الافتتاح من منظورات مختلفة، منها: الكفاية اللسانية، والكفاية الثقافية الإيديولوجية، الكفاية الحجاجية التداولية، وثانيًا: عبر فهم خصوصيات الخطاب الديني عبر أمين الخولي، وفهم خصوصيات غريمه العلماني، عبر خطاب وفاء سلطان، ومحاولة الكشف عن الأفعال الكلامية المشكلة للمنظومة الحجاجية، التي يقتضيها السياق والموضوع المتحاور فيه.

1- تحليل الحوار:

1-1- بطاقة تقنية شاملة (السياق العام وشخصيات الحوار):

1- مقدم الحلقة: فيصل القاسم؛ هو إعلامي سوري - بريطاني، يحمل شهادة الدكتوراه في الأدب الإنجليزي، وهو ينشط في إجراء الحوارات السياسية في قناة الجزيرة الإخبارية، التي تثير المواضيع الجريئة[2].

2- ضيوف الحلقة وطرفاها:

أ- إبراهيم الخولي: ولد سنة 1929م، وهو أستاذ في جامعة الأزهر، وعضو في جبهة علماء الأزهر، يعمل أستاذ للبلاغة والأدب والنقد، في كلية اللغة العربية في جامعة الأزهر، وقد شارك في العديد من المؤتمرات الإسلامية، في مصر والبلدان العربية والإسلامية، وكان له العديد من الأعمال والمؤلفات الإسلامية، التي أنجزها على الصعيدين؛ المحلي والدولي، والملاحظ، في ملتقياته، أنه يرفض حوار الأديان؛ لأنه يعتبره كذبة غربية[3].

ب- وفاء سلطان: هي كاتبة وباحثة أمريكية من أصل سوري، تعيش في لوس أنجلوس، ولدت في بانياس- سوريا، وكانت ديانتها النصرانية، وقد أصبحت مشهورة، منذ أحداث 11 سبتمبر 2001م، من خلال نقدها للدين الإسلامي، وذلك على خلفية مناقشات سياسية عن الشرق الأوسط، كما اشتهرت أثناء كتابتها بعض المقالات العربية، والتي تنشر إلكترونيًا، بشكل شبه شهري على الموقع الرسمي لمؤسسة

2- فيصل القاسم، الموسوعة الحرة، من موقع:

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%81%D9%8A%D8%B5%D9%84_%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%A7%D8%B3%D9%85

3 إبراهيم الخولي، الموسوعة الحرة، من موقع:

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A5%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D9%87%D9%8A%D9

الحوار المتمدن؛ حيث تصدر لها مجموعة مقالات، ظهرت على شاشة التلفاز على قناة الجزيرة والـ CNN، وهاجرت مع زوجها إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1989م، وهما، الآن، مواطنان أمريكيان[4].

وفي عام 2006م، صنفتها مجلة تايم، كواحدة من أكثر الشخصيات تأثيرًا في العالم، وتقول المجلة: إنها كاتبة وناشطة من أجل حقوق النساء المسلمات والمسيحيات، على حد السواء، وفي كثير من المقالات، تقول وفاء سلطان: إنّ الصراع الذي نشهده الآن حول العالم، هو صراع بين عقلية ترجع للعصور المظلمة، وعقلية القرن الواحد والعشرين المتنورة؛ فهو، إذن، الصراع بين الحرية والتشدد الأعمى[5]، وبين التفكير الديني والتفكير الإلحادي اللاديني.

1-2- موضوع الحوار وعلاقته بالشخصيات وبرنامج الاتجاه المعاكس:

إن طريقة اختيار موضوع الحوار، ليست خاضعة للصدفة؛ بل إنّ أهميته في ما يعطي للحوار متتبعين، وكذلك، يعطيه نتائج فكرية موالية لذلك الحوار، لذلك؛ فإن موضوع الحوار يضع قيمة القناة التلفزيونية على المحك، إذا لم يكن من مواضيع الساعة[6]، كما أنه لا شك في أن صيغة القناة المتخذة أداة للتبليغ، والمتوسّل بها لعرض المواقف، تسلّط ضغوطًا على الأسلوب، وعلى الصياغة التعبيرية، وطريقة التقديم وتشكيل الرؤى والأفكار[7]، وهذا ما كان مساهمًا في خلق دلالة المحاججة في برنامج «**الاتجاه المعاكس**»؛ إذ يدور الحوار حول الصراع الحضاري، في حقيقة وجوده من عدمه، وفي طبيعته، وخصوصية أطرافه، وفي علاقته بالديانات السماوية، والصراعات البشرية التي تجعلها غطاءً لها، وكذلك، يحاول الإجابة عن هذا السؤال: هل من يفرضه هو الغرب، بممارساته التعسفية على جميع المستويات؟ ومنها، على سبيل المثال، ما يظهر في وقتنا الراهن من إعادة نشر للرسوم المسيئة لنبي البشرية، وكذلك، الفيلم المسيء له، أم أن ما يفرضه؛ هو التفكير الديني، الذي يلغي، في الكثير من جوانبه، الآخر المفارق له في الفكر والدين.

كذلك، يحاول الإجابة عن حقيقة سؤال العولمة، وما لها من تبعات على الجانب الديني، على وجه الخصوص، في علاقتها بالصراع الحضاري؛ الذي أسس له، على حسب تعبير فيصل القاسم، هنتنغتون؛ منظر الإمبريالية الجديدة.

---

4 وفاء سلطان، الموسوعة الحرة، من موقع:

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%88%D9%81%D8%A7%D8%A1_%D8%B3%D9%84%

5 المرجع نفسه.

6 محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2010م، ص 63.

7 محمد الناصر العجيمي، اجتياز الحدود في مساءلة الخطاب السجالي، ط 1، المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب، تونس، 2010م، ص 52.

يرى الاتجاه الديني الإسلامي، الممثل بإبراهيم الخولي: أن الصراع الحضاري قائم على الصعيد الديني، وهو يشكل حربًا على الدين الإسلامي. أمّا الباحثة العلمانية وفاء سلطان؛ فترى أنّه لا أساس للصراع بين الديانات؛ لأن الصراع، حسبها، إن وجد نسبيًا؛ فهو سبب للتخلف، وتحصر الصراع في سياق التقدم الغربي والتخلف العربي، هذا الصراع الذي تجسد، حسب فيصل القاسم[8]، في تفجير بن لادن لبرجي التجارة العالمية في 11 سبتمبر 2001م، وهو، كذلك، صراع بين المفهوم المعاصر للدين، في كونه؛ علاقة بين البشر والله، وبين المفهوم الشمولي الكلي للدين، في كونه؛ نسائج من العلاقات التي تنظم وتؤطّر العلاقات الاجتماعية[9].

كذلك، ترى الباحثة وفاء سلطان، أن الذي اختلق هذا المصطلح، وجسّده على أرض الواقع؛ هم المسلمون برؤيتهم السطحية والعنصرية للغرب[10]، عبر المخيال الشرقي، الذي تكوّن عن الغرب المتغطرس في تعامله، هو كذلك مع الآخر، الشرقي خصوصًا.

إذا أردنا تلخيص موضوع هذا الخطاب؛ سنقول: إن الدكتور إبراهيم الخولي، يرى أن صراع الحضارات متجسد، منذ القديم، في الحروب الصليبية، وهو لا يزال قائمًا على السياسة الأمريكية العنصرية تجاه العرب والمسلمين، وهو يدافع عن موقع الدين الإسلامي من هذا الصراع، الذي يريد، في أساسه، القضاء على المعتقدات الإسلامية.

أما وفاء سلطان؛ فترى أن الصراع الحضاري، بالمفهوم الرائج والشائع، غير قائم بالأساس؛ فالقائم برأيها؛ هو الصراع بين التخلف والاستبداد الديني، الذي لم ينتج، برأيها، حضارة ولا ثقافة تدافع الأمة الإسلامية بها عن نفسها، وبين التحضر الغربي العلماني؛ الذي يحصر الدين في علاقة الإنسان بخالقه، مركزًا على أسباب النهوض المادية.

أما عن علاقة الشخصيات بموضوع الحوار؛ فهذا يعد أساس في نجاح الحوار، ونجاح التأثير على العنصر الثالث في البرنامج؛ الذي هو المتابِع/ المتلقي للحوار. يقول محمد نظيف، في هذا الصدد: «إن

---

8 برنامج الاتجاه المعاكس، من موقع يوتيوب:
http://www.youtube.com/watch?v=6-4pkXiE6JI، الدقيقة 02: 22.

9 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 02: 35.

10 بعض مقالات وفاء سلطان في موقع الحوار المتمدن:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=180194
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=162137
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=159296

اختيار شخصيات الحوار، توازي؛ بل تتعدى اختيار موضوع الحوار؛ لأن شخصية الحوار تزيد موضوع الحوار أهمية لدى المتلقي، وتقتضي القيمة الاجتماعية والمستوى المعرفي، الذين ينعكسان في مجريات الحوار»[11]، ولقد اشتهر كلا المتحاورين، لدى العامة من المشاهدين والخاصة منهم، بدفاعهما المستميت عن وجهتي نظرهما المختلفتين من جميع النواحي.

لا يكاد يخلو كل سجال من أهداف فكرية وتوجيهية؛ بل حتى سياسية وعقيدية، وقد أجملهما محمد نظيف في هدفين، هما: إثارة الأفكار الجديدة، ثم تنوير الرأي العام وتوجيهه، وهما هدفان؛ يصب الأول منهما، تلقائيًا، في الثاني؛ فإذا حاولنا مقارنة أهداف هذا الحوار المناظراتي، يمكننا القول: إن محاولة إدراك العلاقة بين التفكير الديني والتفكير العلماني، في قضية الصراع الحضاري، يمثل الهدف الثاني: الذي يصبو إلى تنوير الرأي العام وتوجيهه، وإن كنا متحفظين على وجود أي توجيه، نحو أي منحى، من قبل مسيّر الحوار (فيصل القاسم)، وهذا الهدف الثاني: يصب، كما قلنا في الهدف الأول؛ الذي يحاول إثارة قضية راهنة في السياسة العالمية، لديها العديد من التبعات والعلائق المختلفة، وعلى الخصوص، في الجانب الديني لها.

إن عنوان برنامج «**الاتجاه المعاكس**» مناسب تمامًا لهذا الموضوع، ولهذا الهدف؛ فعنوان البرنامج يحمل الموضوع، على أساس كون سماته الأساسية؛ هي التعارض والتعاكس في الرأي، إن صح التعبير، أما هدفه وهو إثارة القضايا الراهنة بأسلوب حواري مناظراتي؛ فقد جسّده البرنامج، في كون هدفه؛ هو إيجاد التقاربات والتماسات بين تلك الاتجاهات المتعاكسة.

1-3- حجاجية الافتتاح وتأثيره على الموسوعة الحجاجية للمتكلمين والمتلقين[12]:

إن الحوار الذي يدور في إطار الاتجاه المعاكس، يهدف في أهم مراميه: «إلى نتائج فكرية وتوجيهية هامة، وذلك بالنظر إلى أن إبداء الرأي المعاكس للرأي الآخر، من طرفين مختلفين في تكوينهما المعرفي، والعقدي، والفكري، سيؤدي، حتمًا، إلى تنافس تلك الأطراف في إبداء أحسن الآراء، لاستمالة أكبر عدد من الشرائح المستهدفة، مما يؤدي إلى تطوّر متنامي لموضوع الحوار من جهة، وتزايد وتيرة الإقناع من طرف المتتبعين من جهة أخرى[13]؛ لهذا سنعمد مباشرة إلى تتبع تطور مستويات الحوار، من ناحية حجاجيته وإقناعه، عبر تقسيمه إلى ملفوظاته الرئيسية.

---

11 محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية، ص 64.

12 تجدر بنا الإشارة، إلى أنه في تحليلنا للافتتاحية، استندنا إلى طريقة تحليل محمد نظيف لمجموعة من البرامج التلفزيونية، وقد خرجنا عن هذه الطريقة، أثناء تحليلنا للمتن الحوار، وحاولنا أن نؤسس لبراديغم بحثي، يفك شيفرة الحوارات السجالية، مستندين إلى أطروحة العجيمي.

13 محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية، ص 68.

أ- افتتاحية الحوار من منظور الكفاءة اللسانية والثقافية والحجاجية:

على غرار كل الحوارات، سياسية كانت أو غيرها، يمنح مقدّم البرنامج فرصة افتتاح، بتقديمه للانشغالات الأساسية التي دعت إلى عقد الحوار، وتخصيص حصّة كاملة للموضوع في هيكلة البرامج المتلفزة للقناة[14]، وقد جاء التقديم الذي قدّمه فيصل القاسم، على شكل الملفوظات الآتية، التي سنقوم بتحليلها فيما بعد.

يقول فيصل القاسم، في تقديمه لموضوع النقاش: «تحية طيبة مشاهدينا الكرام، ما هذا النفاق الغربي الرسمي الصارخ؟ لماذا سجنوا بالأمس المؤرخ (ديفيد إيرفينغ 1938) (David Irvingم)، ثلاثة سنوات؛ لمجرد تشكيكه بعدد الذين ماتوا في المحرقة اليهودية؟ بينما يعتبرون فعلة الصحيفة الدنماركية، التي دنّست أقدس المقدسات الإسلامية، مجرد حرية تعبير. هل بقي لدينا أدنى شك، بأننا بصدد صراع حضاري تفرضه علينا الطغم الحاكمة المتغطرسة في الغرب؟ يتساءل أحدهم: ألم تعد بقية الصحف الغربية، نشر الإساءات الدنماركية، مما يؤكد على موقف رسمي غربي من الإسلام والمسلمين؟ يضيف آخر: من أطلق مقولة صراع الحضارات، في الأصل؛ المسلمون، أم المفكّر الأمريكي صامويل هنتجتون (منظر الإمبريالية الجديدة، التي يسمونها عولمة)؟ أليس البادئ أظلم؟ أليست الدعوات التي يطلقها بعض الزعماء العرب إلى حوار الحضارات، نوعًا من الضحك على الذقون؟ أليست حملة صليبية جديدة، يريد من خلالها سادة العالم الغربي توريد أتباع الديانات السماوية في صراعات دينية؛ لفرض أو لغرض الهيمنة والتسلط؟ ألم تكن نظرية هنتجتون تسويقًا لخطّة مبرمجة بهدف القضاء على الميراث الشرقي؟ ألم تعترض فرنسا، في يوم من الأيام، على انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، بحجة أنه ناد مسيحي؟[15].

لكن في المقابل؛ يواصل فيصل القاسم في عرض وجهة نظر، معاكسة للرؤية للأولى، لماذا اتهام المفكرين الغربيين باختلاق الصراع الحضاري؟ ألم يكن المفكر المغربي **المهدي المنجرة**[16]؛ أول من تحدث عن صراع الحضارات قبل هنتجتون بثلاثة أعوام؟[17].

إنّنا إذا حاولنا التعرض إلى هذا الافتتاح، في تشكلاته النصية، وكفاءاته المختلفة، يمكن، باختصار، أن نقول: إنه ألمّ بموضوع السجال الدائر بين قطب التيار الديني والعلماني؛ لذلك نلمح عدّة كفاءات في ترابط واضح، تدافع عن قضية واحدة، ومن هذه الكفاءات نذكر الآتي[18]:

14 المرجع نفسه، ص 70.

15 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة الأولى ومابعدها.

16 اقتصادي وعالم اجتماع مغربي، مختص في الدراسات السياسية والمستقبلية، توفي سنة 2014م.

17 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 01: 58.

18 محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية، ص73.

1- الكفاءة اللسانية la compétence linguistique:

وهي تعد من أهم هاته الكفايات؛ التي تتمثّل في حسن اختيار الألفاظ المناسبة، والقوة التعبيرية التي تحملها، للتدليل على قضية أو إشكالية تأثير العامل الديني، وغير الديني/ العلماني، وما بعد العلماني، في الصراع الحضاري، القائم من عدمه أصلًا، ومن هذه الألفاظ والعبارات، التي تحمل، في ذاتها، دلالة الصراع في الافتتاحية، نذكر ما يلي: **ما هذا النفاق الغربي الرسمي الصارخ؟**[19]؛ حيث تشير هذه العبارة، من ناحية ألفاظها المعجمية، وهو فعل كلامي إنجازي، من منظور أوستين، أما من ناحية تشكيلها النحوي؛ فتحيلنا إلى دلالة الصراع الخفي (النفاق).

وكذلك هذا يتمثل في العبارات التالي: **أليست الدعوات التي يطلقها بعض الزعماء العرب لحوار الحضارات نوعًا من الضحك على الذقون؟ أليست حملة صليبية جديدة يريد من خلالها سادة العالم الغربي، توريد أتباع الديانات السماوية في صراعات دينية لفرض أو لغرض الهيمنة، والتسلط؟**[20]؛ حيث تشير ألفاظ: **الفرض، والهيمنة، والتسلط**، إلى طبيعة الصراع القائم بين الاتجاهين، وفي الحقيقة؛ هي ألفاظ إعلامية، تهدف إلى تنبيه المتتبع على أهمية الموضوع المطروح، وكذلك، هناك استحضار للكثير من الحجج؛ التي تقود القيمة الإعلامية إلى ما هو مطروح في النقاش[21]، وهذه الألفاظ الإعلامية المنبهة، هي: **ألم تكن نظرية هنتجتون تسويقًا لخطّة مبرمجة بهدف القضاء على الميراث الشرقي؟ ألم تعترض فرنسا، في يوم من الأيام، على انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي بحجة أنه ناد مسيحي؟**[22]؛ حيث تشير ألفاظ: نظرية هنتجتون، وتسويقًا لخطة مبرمجة، وتعترض فرنسا على انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، وناد مسيحي؛ فجميع هذه الألفاظ، تثير السامع من ناحية دلالاتها، المعجمية وتشكيلاتها النحوية.

2- الكفاءة الثقافية والإيديولوجية la compétence culturelle et idéologique:

يتم تفعيل هاتين الكفاءتين مع الكفاية اللسانية، عبر مجموعة من الأفعال الكلامية، المرتبطة فيما بينها في إطار مقاصد إيديولوجية شاملة، وذلك؛ لإظهار مدى الإدراك المعرفي للموضوع، باستحضار الأسباب والمقاصد التي تحكمت في سيره، ومن ثمّ؛ الربط بين الأحداث المتزامنة، التي جعلت الصراع الثقافي، يتمركز بين؛ الجانب الديني، والجانب غير الديني/ العلماني.

---

19 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 00: 04.

20 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 00: 9.

21 مانفريد فرانك، حدود التواصل، ترجمة: عز العرب لحكيم، إفريقيا الشرق، الرباط، المغرب، 2003م، ص ص 25- 26.

22 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 01: 35.

تبرز الإيديولوجيتان، الدينية وغير الدينية، في العبارات/ الأفعال الكلامية، الصريحة والضمنية، الآتية: **ما هذا النفاق الغربي الرسمي الصارخ؟ لماذا سجنوا، بالأمس، المؤرخ ديفيد إرفنغ، ثلاث سنوات، لمجرد تشكيكه بعدد الذين ماتوا في المحرقة اليهودية؟** هذه الأفعال الكلامية الإنجازية، تحيل إلى مقصد: أن المتكلم ملمٌّ بالحيثيات التي أدت إلى هذا الصراع الحضاري، وملمٌّ، أيضًا، بالأطر الإيديولوجية التي هيئت لهذا الصراع.

إذن، تهدف الكفايتان، معًا، إلى تحقيق تفاعل إيجابي مع المتتبعين؛ الذين يجيبون بطريقتهم عن الأسئلة التي يقدمها المقدم، والتي سيجيب، هو بدوره عليها، في أفعال إخبارية تالية، عبر الالتزام بخاصية الانسجام الداخلي للمعلومات، وكذلك؛ ضرورة حسن تقديمها، سعيًا إلى تحقيق الإقناع بجدوى الموضوع المطروح للنقاش، وأهلية هذه المعلومات لفرض درجة عليا من التتبع، من طرف المستهدفين[23]، وقد تدرّج المتكلّم/ المحاور في عرض العبارات والتساؤلات، وهي الأفعال الكلامية ذات الهدف التواصلي مع الآخر، وذات الطابع الإيديولوجي على شكل من الانسجام؛ حيث انطلق من طرف ليصل إلى آخر بانسجام داخلي، على الشكل الآتي:

1- تحية.

2- عرض فكرة النفاق الغربي تجاه قضية العدالة العالمية، وقضية المؤرخ ديفيد إرفنغ، الذي سجن لمجرد تشكيكه في المحرقة اليهودية.

3- التساؤل حول شرعية تدنيس المقدسات الإسلامية باسم حرية الصحافة.

4- التساؤل حول مقولة الصراع الحضاري؛ هل ولّدها الغرب أم العرب؟

5- التساؤل حول نسبتها إلى الغرب؟

6- التساؤل حول نسبتها إلى العرب؟

3- الكفاءة الحجاجية La compétence Argumentative:

يمكن حصر الكفاية الحجاجية في مجهود الإقناع[24]؛ لأن البعد الحجاجي يكون في اللغة، كلما كان هدف الخطاب، هو: إقناع المستهدف بذلك الخطاب[25]؛ فالقضية التي يحاول فيصل القاسم إقناع المستمع بها،

23 ينظر: مانفريد فرانك، حدود التواصل، ص 28.

24 Voir: michel mayer, langage et argumentation, edition hachette, paris France, p136

25 Voir: ibid, p 136.

هي؛ وجود صراع حضاري بين التيار العلماني الغربي والديني، ومن ثم؛ الخوض في هذا التيار الإسلامي الديني العربي؛ فيرى بأهمية الخوض في هذه القضايا، لذلك؛ فالكفاية الحجاجية، تظهر من أجل تدعيم الأفكار، وتواصل أفضل مع المتتبعين.

يتجسّد هذا الحجاج في المونولوغ الذي قام به فيصل القاسم، في تساؤلاته التي كان يرمي، من خلالها، إلى استثارت الطرفين من أجل تقديم حججهما.

من أهم الجوانب الحجاجية؛ التي ظهرت في تقديم فيصل القاسم، نذكر الآتي:

1- تأكيده على أهمية وخطورة الوضع القائم في الوطن العربي.

2- تحفّظه على سجن المؤرخ إرفينج، لتشكيكه في أعداد القتلى الذين لقوا حتفهم في المحرقة اليهودية.

3- تشكيكه في نزاهة الصحافة الغربية.

4- تساؤله حول من بدأ بالحديث، نظريًا، عن الصراع الحضاري: هل هو مهدي المنجرة أم هنتجتون؟ ومن بدأ في ذلك الصراع الحضاري تطبيقيًا؟ ألم تكن القاعدة هي من بدأت فيه؟ أم كانت أمريكا تخطط له من أجل القضاء على الجانب الديني في الثقافة العربي الإسلامية، وتحويلها إلى ثقافة مادية، عبر تفريغها من الجانب الروحي، وتشتيت كيانها، المشتت أصلًا.

وإذا تناولنا هذه الحجج من منظور غرايس في مبدئه الحجاجي؛ أي مبدأ الملاءمة (principe de pertinence)، يتبيّن لنا مدى التدرج الحجاجي، وهي، هنا، في هذه الأسئلة، جاءت في إطار تدرج حجاجي، يخدم مصداقية المرسل.

1-4- حجاجية الحوار وارتفاع سلم البراهين وسبل انفلاتها:

يبتدئ فيصل القاسم حواره الموجه لوفاء سلطان، بسؤالٍ أسس له بمجموعة من المعطيات والأحداث الواقعية، تشكل مجموعة من الأفعال الكلامية الإخبارية؛ التي سبقت السؤال (الفعل الإنجازي)، الموجه إلى المتلقي (وفاء سلطان) خصوصًا، والعلمانيين عمومًا.

يقول فيصل القاسم فيما معناه، على ضوء الأحداث الأخيرة، وعلى ضوء الضجة الكبيرة التي تحدث في أوربا، فيما يخص الإسلام: إنه صراع الحضارات الذي بشّر به هنتجتون، وهي الحملة الصليبية التي

أعلن عنها جورج بوش الصغير، عقب أحداث سبتمبر، والتي تشترك فيها تلك الدول بأشكال متنوعة؛ فمنهم من يغزو البلاد، ويعيث فيها فسادًا، وقتلًا، وتدميرًا، ونهبًا (أفغانستان والعراق) مثالًا، وآخرون يقمعون حرية مسلمي تلك البلاد الغربية بإقامة الشعائر الإسلامية، ويصدونهم عن الالتزام بالإسلام، وآخرون يتدخلون في شؤوننا، وآخرون يستهزؤون بالإسلام ورسوله، كما يحدث في الدنمارك وغيرها[26].

إنّ الدلالة التي تشكلها مجموعة من الأفعال الكلامية الإخبارية، حين تتضافر فيما بينها، تكون، في الأساس، مشكّلة عبر فعل كلامي كلّي، جمعها بمفهوم (فان دايك Van dayk)، ولعل هذا الفعل الكلي في هذا الخطاب، يتجسد في قوله: «إنه صراع الحضارات الذي بشّر به هنتجتون، وإنها الحملة الصليبية التي أعلن عنها جورج بوش الصغير، عقب أحداث سبتمبر»؛ إذ يحمل هذا القول دلالة الفعل الكلامي الوصفي الإخباري والإثباتي، في تقديم الخبر وإثباته، أما قوته الإنجازية التي يحملها؛ فهي التأكيد على أن ما يحدث في العالم، ليس اعتباطيًا؛ وإنما هو نتيجة لمجموعة من التحولات الحضارية والدينية؛ إذ يلعب هذا الأخير، حسب فيصل القاسم، الدور الأكبر في هذا الصراع، وهذا بارز في الفعل الكلامي الجزئي، والذي بدوره يندرج في إطار الفعل الكلي، الذي استعمله في قوله: «وآخرون يقمعون حرية مسلمي تلك البلاد الغربية، في إقامة الشعائر الإسلامية، ويصدونهم عن الالتزام بالإسلام»[27]، وإذا حاولنا أن نموضع هذا الفعل الكلامي، ضمن التقسيم الخماسي الذي قدّمه (أوستين 1960 -1919] (Austinم)؛ فسندرجه في صنف العرضيات، التي يعرّفها أوستين بأنها: «تندرج في مجرى المحاجة أو المحادثة، بمعنى آخر؛ هي التي تسمح بالعرض، في ما يلي هذه الأمثلة: «أبرهن، وأسلم، وأظنّ أنه من الثابت، وأطرح كمسلمة»[28]؛ إذ إن ربطه لمفهوم الحرية بإقامة الشعائر الدينية، يقدم لنا فعلًا كلاميًا ذا قوة إنجازية، كالدفاع عن قضية، هي: أن الإسلام يحارب من قبل الغرب، وأن المسلمين يُنتزع منهم حقهم الأساسي في الحياة، وهو التمتع بممارسة الشعائر الدينية، والتقرب من الله.

يواصل فيصل القاسم الدفاع عن فعله الكلامي الكلي (البؤرة) بمفهوم سيمون دايك*، في عرضه لنتائج الاستفتاء الإلكتروني؛ الذي يقول فيه أن 81% من المصوتين، يرون أن العالم يتجه نحو صراع للحضارات، وأن 19%، يقولون: لا[29]، وهذا النوع من الحجج، لا يقبل النقاش، أبدًا، من منظور الباحث محمد العمري.

---

26 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 00: 44.

27 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 00: 54.

28 جون لانشو أوشتين، القول من حيث هو فعل، نظرية أفعال الكلام، ط 2، ترجمة: محمد يحياتن، عالم الكتب للنشر والتوزيع، تيزي وزو، 2001م، ص 125.

29 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 05: 32.

عند طرح فيصل القاسم الفعل الكلامي الإخباري، الذي يُختار ويُنتقى، دائمًا، عكس الاتجاه الذي يؤمن به من هو موجه إليه، لهدف استثارته، وحمله على تقديم حجج وأدلة تدعم اتجاهه الفكري، وتنفي ما يقول به المقدم، الذي دائمًا ما يكون عكس الاتجاه، الذي يكون لدى الضيفين؛ حيث يتقمص فكرهما بالتناوب وباستمرار.

قلنا: عندما يطرح فعله الكلامي الإخباري، الذي يشكله من أفعال كلامية جزئية، ينتقل إلى عرض فعله الكلامي الجزئي الإنجازي؛ إذ يقول: كيف تردين؟ وهو، هنا، يحمل قوة الاستفهام عن كيفية الرد على هذه المعطيات، ويحمل، كذلك، على جعل الآخر/ المُحاور، في وضعية المدافع عن أطروحته المنتقدة.

بعد فعل كلام الشكر، الذي تقدمه المحاورة وفاء سلطان للمشرفين على البرنامج، والمنشط، وفعل كلام التمني بالاستفادة، ورجاء حصول المتعة من الحوار، وهذا هو، في الغالب، المبدأ الذي يسير وفقَه الحداثيون، وما بعد الحداثيين؛ الذين يؤكدون على مبدأ الاختلاف في التعبير، والأفكار، وحرية الاعتقاد، ونبذ الخلاف لمجرد الاختلاف، وسنرى: هل تجلت هذه المقولات في فسيفساء الخطاب الذي شكّلته وفاء سلطان؟

تقدّم وفاء سلطان مجموعة من المعطيات والمفاهيم، قبل الإجابة عن فرضيّة وجود صراع حضاري أو ديني من عدمه، وقد بنت هذه المعطيات عبر تحديد لمجموعة من المفاهيم، عن طريق طرح أسئلة ترتبط بها، من قبيل[30]:

- ما هو الدين؟

- ما هي الحضارة؟

- وهل يلتقيان؟

تمثل هذه الأسئلة أفعالًا كلامية إنشائية/ إنجازية[31]؛ لأنها تقوم ببناء مجموعة من المسلمات والمنطلقات، (أفعال يؤسس عليها العقل استدلالته).

تقدم وفاء سلطان مجموعة من الأفعال الكلامية، التي تؤسس عليها حججها، فتقول: «إن الدين: هو مجموعة القيم، والمثل، والمبادئ، التي تنظم العلاقة بين الإنسان، والقوة الإلهية التي يؤمن بها، ويفترض

30 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 05: 49.

31 الأفعال الإنجازية/ الإنشائية: هي التي ننجز بها، في ظروف ملائمة؛ أفعالًا، أو تؤديها، ولا توصف بصدق ولا كذب؛ بل تكون موفقة أو غير موفقة، ويدخل فيها، إلى جانب السؤال؛ الاعتذار، والنصح، والوعد. وسنرى مدى توفيقها أعلاه. ينظر: أحمد محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 44.

ألا تتجاوز حدود تلك العلاقة»[32]، إنّ هاته الإجابة التي قدمتها، منسجمة مع القضية التي تدافع عنها وفاء سلطان؛ وهي ضرورة علمنة المجتمع، وعزل الدين عن التعاملات الاجتماعية، وقصره على تلك العلاقة الإلهية– البشرية لا غير؛ ولهذا الغرض، خصصت مجموعة من الأفعال الإخبارية، ذات قوى إنجازية مختلفة، تحيل، في الغالب، إلى دلالة، أو معنى، أو فعل، تجاوز العلاقات الاجتماعية عبر الوسيلة/ البراديغم الديني، كما هو الحال في العالم الديني[33]- غير العلماني.

لعل الفعل المتضمن في هذا القول، يحيلنا إلى الفهم العلماني المعتاد للدين؛ فهل سنجد هذا الفهم موظفًا لدى وفاء سلطان، فيما يلي من عملية الحجاج، أم أنها ستقع في تناقض مع ما قالته عنه في تعريفها له هنا؟

تقدم وفاء سلطان تعريفًا للحضارة، على الشكل الآتي: «هي درجة عليا من الرقي الاجتماعي، نجمت عن التفاعل بين الفكر الحر والعمل الخلوق المتقن، عندما يصل الإنسان إلى تلك الدرجة، يعيش حياته بسلام واحترام، ويكون، بالتالي، أكثر قدرة على الإبداع، وأكثر قدرة على الإتقان»[34]، والقوة الإنجازية لمجموعة الأفعال الكلامية التي حواها هذا القول، تحيلنا مباشرة، إلى أن الحضارة أحسن من الدين؛ لأنها تمثل أعلى درجات الرقي الإنساني.

كما نلاحظ ذلك المدلول في هذا الفعل الكلامي الإخباري: «الحضارة نجمت عن التفاعل بين الفكر الحر، والعمل الخَلُوق المتقن؛ فعندما يصل الإنسان إلى تلك الدرجة، يعيش حياته بسلام واحترام، ويكون، بالتالي، أكثر قدرة على الإبداع، وأكثر قدرة على الإتقان»[35]؛ إذ يحمل هذا الفعل الكلامي قوة إنجازية، مفادها؛ أن الحضارة لم تنتج عن اتباع الطريق/ المنهج الديني، في التعامل مع معطيات الحياة الاقتصادية والتكنولوجية؛ وإنما نتجت عن طريق وجود تماثل بين الفكر الحر (غير الدوغمائي)، والعمل الموسوم بالخلق المتزن، وإن كانت دلالة الخلق المتزن، ترتبط، في الأساس، بالجانب الروحي الديني، إلا أنها في سياق الحديث، هنا، لا تُربط بالجانب الديني، بالمفهوم المتداول في العالم العربي؛ وإنما بالمفهوم العلماني له، وينتج عن هذا الفعل الكلامي؛ فعل تأثيري (acte perlocutoire) لدى المتلقي، مفاده؛ أنه لا يرتبط الجانب الأخلاقي بالديني فقط؛ بل يمكن أن يوجد، كذلك، في العالم العلماني.

32 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 06: 04.

33 نحن نتحدث، هنا، عن العالم الديني، بمعنى؛ مجموعة الدول التي تستند على قوانين دينية، لضبط تعاملات الأفراد الاجتماعية والسياسية، وحتى الاقتصادية.

34 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 06: 10.

35 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 06: 26.

ولو تأملنا ودققنا في الأقوال التي وردت بعد هذا الفعل الكلامي؛ لوجدنا أنّها منسجمة ومتسقة مع ما ورد قبلها، ومنسجمة، من حيث الروابط اللغوية المستعملة فيها؛ (أما، فهي، نجمت عن، عندما يصل، تلك، بالتالي)، وليس في الألفاظ الثلاثة: «الإسلام، المسيحية، اليهودية ليس حضارة»[36]، أمّا الاتساق؛ فهو الحاصل المنطقي عبر الروابط اللغوية.

توجه وفاء سلطان أربعة ألفاظ، تحسم بها توجهها الفكري، وتضبط عبرها خلفيتها المعرفية والمفاهيمية، وهذه الألفاظ، هي[37]:

- الإسلام ليس حضارة.
- المسيحية ليست حضارة.
- اليهودية ليست حضارة.
- باختصار الدين ليس حضارة.

إنّ الملاحظ في هذه الأفعال الكلامية؛ أنّها جاءت أفعالًا إخبارية/ وصفية/ إثباتية، وقد جاءت منسجمة، إلى حد بعيد، مع باقي الأفعال الكلامية الكبرى؛ فقد مثّلت، أساسًا، البنية الكبرى **(macro structure)**، التي تتحكم في انسجام الخطاب، بجميع الأفعال الكلامية، والبنى الجزئية الموجودة فيه، ولكي تنسجم البنية الكبرى مع البنى الجزئية، علينا «أن نسلم بأن العبارات، تترابط بفعل موضوع التحاور في مقطع خاص»[38]، وهذا المقطع مثّلته الألفاظ الأربعة، وبالخصوص؛ اللفظ الإخباري الرابع «الدين ليس حضارة»، الذي يحمل قوة إنجازية، مفادها: أن لا علاقة للدين بمفهوم الحضارة، وإن كانت؛ فهي علاقة الجزء من الكل، لا غير.

تنتج لدى المتلقي دلالة معينة، عند سماعه مجموعة من الأفعال الكلامية المنسجمة، على الشكل الآتي: «الحضارة أعم وأشمل من الدين، والحضارة تشمل الدين، والدين ينطوي تحت لواء الحضارة، وهو جزء من الكل»[39]، إن هذه الدلالة تتشكل عبر الفعل التأثيري الذي تمارسه المتكلمة، عبر استعمالها لعلاقة الجزء من الكل، في نسج العلاقة بين مفهومين، هما أساس البحث في التيارين الديني والعلماني؛

36 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 06: 35.

37 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 06: 31.

38 فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب- لبنان، 2000م، ص 205.

39 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 06: 48.

فالمتلقي الديني، يفهم هذا الخطاب على أنه: تقزيم لحجم الدين على حساب الحضارة، وحطّ له، أما المتلقي العلماني؛ فهو يفهم أن الحضارة: هي الأساس، وما الدين سوى تابع لها، ولا علاقة لها بالتطور الذي يحدث لأمّة معينة.

يبدأ سلم البراهين في الارتفاع لدى وفاء سلطان، بعد عرضها لتلك المعطيات والمقدمات المفاهيمية، وهذا يحدث عندما تشرع في الإجابة عن سؤال المقدّم؛ إذ تقول: «ما نراه من صراع على الساحة الدولية، ليس صراعًا بين الأديان، وليس صراعًا بين الحضارات، إنه صراع بين النقيضين، وصراع بين زمنين، وصراع بين العقلية التي تنتمي إلى القرون الوسطى، والعقلية التي تنتمي إلى القرن الواحد والعشرين»[40]؛ حيث يمكن فهم الدلالة الحرفية لهذه الأفعال الكلامية، في فعلها المتضمن في القول الأولي/ الحرفي، على أنه حجة، أو برهان، أو شرح لواقع المعيش بين الحضارة الغربية بصفة عامة، والشرقية بصفة خاصة، بين الديني واللا ديني، وهاته الدلالة الحرفية، ظاهرة في الفعل الكلامي الوارد في بداية القول؛ إذ ينفي ذلك القول، عبر قوة إنجازية معينة، دلالة الصراع الديني والحضاري، ويؤكد على وجود صراع على مستوى القوي والضعيف، وصراع الخير والشر، ولكن ألا يخالف هذا الصراع، الذي شكلته عقلية، وأوليات، ومقولات الحداثة الغربية، التي تؤكد على مفهوم الاختلاف، وتعدد الثقافات، وتنوعها.

في الحقيقة؛ الموقف التي تنتهجه وفاء سلطان في هذا الخطاب، هو موقف متمركز على الحضارة/ الحداثة الغربية، وقاتل للموروث الثقافي الشرقي، وهذا إقصاء للآخر، يمارس في خطابها العلماني هذا؛ فإن كان الشرق الديني متخلف؛ فما علاقة الغرب العلماني بذلك التخلف، وهل هو وصي على تقدمه، وضرورة ازدهاره فكريًا وثقافيًا؟ إنّ هذه المسائل تستغل في الغرب، لغرض استعماري اقتصادي، تغطيه مجموعة من الخطابات الرنانة، التي تخفي أنساقًا من الطغيان على الآخر.

إن ضرورة الاختتام في خطاب وفاء سلطان، أدّت بها إلى المبالغة في براهينها وآرائها؛ لأجل التأثير في المتلقي/ الآخر، مما جعلها تقع في نوع من المصادرات والأحكام الجزافية، عبر توظيف مجموعة من الأفعال الكلامية، التي احتوت ثنائيات، لطالما استند عليها الفكر الغربي في نظرته الدنيوية إلى الشرق، تقول: «إنّه صراع بين الحضارة والتخلّف، وبين المدنيّة والبدائية، وبين الهمجية والعقلانية، وهو صراع بين الحرية والقمع، وبين الديمقراطية والديكتاتورية، وصراع بين حقوق الإنسان من طرف، واغتصاب تلك الحقوق من طرف آخر، وصراع بين من يعامل المرأة كبهيمة، وبين من يعاملها

40 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 07: 00.

كالإنسان»[41]؛ فالقول: إنّه صراع بين الحضارة والتخلف، وبين الحرية والقمع، يحمل قوة إنجازية، مفادها: أنا الحق أنا المطلق[42]، وينتج من خلالها؛ فعل تأثيري لدى المتلقي الديني، المؤمن بديانة سماوية معينة، على أنّه على باطل، وعلى خطأ.

من ناحية أخرى؛ «إن وفاء سلطان، تنطلق في خطابها هذا، من مصادرات لم يُمهّد لها لتنزل في العرف الشائع، منزلة أحكام معترف بها، أو تستند إلى براهين ثابتة يمكن الاطمئنان إليها، مما يفقدها كل مشروعية، ويقود إلى تهاويها، والحال؛ أن هذا الضرب من التهم المرسلة، يمكن أن يكون له تأثير في صورة المستهدف عند المتلقي»[43]؛ إذ إنّها انطلقت من مجموعة من الثنائيات، المستهلكة والمنتقدة، أساسًا.

إنّ القول الذي جعلته مركز الثقل في نسيج خطابها، هو: «إنه صراع بين حقوق الإنسان من طرف، واغتصاب تلك الحقوق من طرف آخر، وهو صراع بين من يعامل المرأة كبهيمة، وبين من يعاملها كإنسان»، يعد قذفًا للآخر، بطريقة ضمنية، وكأن وفاء سلطان تقول: إن العربي إنسان غرائزي حيواني، وإنّ الإنسان الغربي العلماني ملائكي، لا يملك غرائز، وهذه سمة من سمات التعالي الغربي، التمركز حول الذات.

ومن ثم؛ فإن قذف الآخر بالشتائم، الضمنية والصريحة، والإطناب في إرسال التهم، وانتظامها في دوائر دلالية متضايقة، من منظور اللسانيات التداولية، كما هو الحال في هذا الحوار، قد يثيران الضحك لدى المتلقي، ويعملان على تقديم الضحك، ويعملان على تقديم الآخر في صورة ساخرة[44]، وهذا ما أثّر على إجابة إبراهيم الخولي من التيار الديني؛ حيث لمسنا، كما سنرى لاحقًا، بعض التوتر الساخر في ردّه على وفاء سلطان.

لم تُوفّق وفاء سلطان في اختيار الأفعال الكلامية، المنسجمة مع الدلالة المنطقية التي خلقتها البنية الكبرى، التي تقول بعدم وجود صراع بين الدين واللادين، أو بين الحضارة واللاحضارة؛ حيث تقول

41 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 07: 14.

42 ينظر: فهم عبد الله الغذامي إلى هذه الفكرة، وتجلياتها في الثقافة العربية، على الرغم من وجودها في ثقافة الغرب المؤسس على مجموعة من الثنائية الضدية. هذا كله في كتابه: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط 1، المركز الثقافي العربي، المغرب- بيروت، 2000م، ص 278. لقد أشارت، كذلك، الباحثة كدير ليندا، وكاتب هذا البحث في فهمهما لخطاب ما بعد النسوية، إلى هذه الثنائيات الضدية، ومدى خطورة توظيفها، على صعيد فهم العلاقة بين الرجل والمرأة؛ فقد ألغت ما بعد النسوية، المستندة، أساسًا، على فلسفة الما بعد، جميع هذه الثنائيات، وفسحت المجال للاختلاف لا الخلاف، في إطار التمايز القائم بين الرجل والمرأة. كذلك، هنا، يمكن أن نطرح هذه المسلمة الما بعدية في الخطاب الديني العلماني؛ إذ لا يعني الخلاف الموجود بينهما، التصادم التام؛ بل يعني وجوب فهم علاقاتهما، في إطار الاختلاف الما بعدي. ينظر: مقال نبيل محمد صغير وكدير ليندا، إشكالية الهوية والمساواة والما بعد في فلسفة ما بعد النسوية، ضمن الكتاب الجماعي: الما بعديات (مخطوط)، تحت إشراف د. علي عبود المحمداوي.

43 محمد الناصر العجيمي، اجتياز الحدود في مساءلة مفهوم الخطاب السجالي، ط 1، المغاربية لطباعة وإشهار الكتب تونس، 2010م، ص 11.

44 ينظر: محمد الناصر العجيمي، اجتياز الحدود في مساءلة مفهوم الخطاب السجالي، ص 52.

هنا: «ما نراه ليس صراعًا بين الحضارات، فالحضارات لا تتصارع، ولكن الحضارات تتنافس؛ فهي تعكس أوجه التشابه، أكثر مما تعكس أوجه الاختلاف، والتفاوت في درجة الرقي؛ هو سبب هذا الصراع»[45]، فمن جهة؛ لا يوجد صراع، ومن جهة أخرى؛ يوجد صراع بين الرقي والتخلف، وإن كان كذلك، ألا يسمى ذلك صراعًا؟ بلى، أقول: يسمى صراعًا، مهما كان نوعه، أو درجته، أو نسبته.

يبتدئ إبراهيم الخولي خطابه، الذي جاء على شكل ردّ على الخطاب الموجّه إليه من طرف وفاء سلطان، والذي تقول بنيته الكلية أو قوته الإنجازية الشاملة: إنّه لا وجود لأيّ صراع غربي علماني، على العربي الديني بصفة عامة، ولهذا؛ يحاول إبراهيم الخولي في خطابه، أن يبرز كفاءته الإيديولوجية في ضبط المصطلحات والمفاهيم، وهذا ظاهر في قوله الأول، من حيث دلالة الفعل الإنجازية، التي يحملها هذا القول، بعد البسملة، يقول: «بداية أقول: ليس من حق أحد أن يحدد المفاهيم، التي لا يستطيع فرد أن يستقلّ بتحديدها، وأن يفرضها»[46]، وهو، هنا، يخلق فعلًا تأثيريًا لدى المتلقي العلماني عمومًا، ولدى ممثلته وفاء سلطان على وجه الخصوص، ومفاد هذا الفعل التأثيري: أن ما تقول به وفاء سلطان، لا يحتكم إلى منطق مضبوط؛ لعدم انضباط المفاهيم المستخدمة لبناء الاستدلالات، والنتائج التي توصلت إليها عبر تلك الاستدلالات.

ولهذا؛ استعمل إبراهيم الخولي مجموعة من الأفعال الإنجازية، التي يبتغي، من ورائها، ضبط المنظومة، المفاهيمة والمصطلحية، لبناء استدلالاته الذاتية، ومحاولة تعميمها على الوقائع العامة، التي يعيشها العالم اليوم؛ فيقول سائلًا وفاء سلطان[47]:

- ما مفهوم الحضارة عندك؟

- أي تعريف للحضارة؟

ويردف القول، مؤكدًا على دلالته الأولى، وهي ضرورة ضبط المصطلحات جيدًا: «لا بد أن نبدأ بتحديد المصطلحات والمفاهيم»، وهنا، نلاحظ تكرار الفعل التأثيري لدى المتلقي؛ فهو تأكيد، للمرة الثانية، على أن المحاور معه لا يملك الحقيقة، كما كان يدّعي سابقًا؛ وإنما هو واقع في أزمة مفاهيمية، جعلته يميل إلى الاتجاه الإيديولوجي العلماني، بانكاره الصراع القائم بين الغرب والشرق. يواصل أسئلته، ويقول[48]:

45 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 08: 00.

46 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة: 08: 25.

47 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 08: 40.

48 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 08: 40.

- ما الحضارة؟

- ما التقدّم؟ ثم يقدّم مسلمة مفادها: «أن أي تقدّم، يمكن أن ينتهي إلى تخلّف إنساني، بكل معنى الكلمة»، وهنا أساسًا؛ يقدم فعلًا كلاميًا إخباريًا، تكمن قوته الإنجازية في أنّه لا يجب الانبهار بالتقدم؛ لأنه، في كثير من الأحيان، يحال إلى التأخر والتدهور، على مستوى القيم والمبادئ الإنسانية، كما هو حاصل في الغرب المادي.

يواصل الأستاذ ابراهيم الخولي حديثه، موجهًا إياه، بطريقة صريحة إلى وفاء سلطان، قائلًا: «يبدو أنّك تخلطين بين الحضارة والثقافة»[49]؛ فمفهوم الحضارة يرتبط، أساسًا، بالجانب المادي المدني، المستعمل في التكنولوجيا والتطبيق العلمي، أما مفهوم الثقافة؛ فيرتبط بالجانب المعتقداتي، ومجموعة العادات لشعب معين. يقول إبراهيم الخولي: «الحضارة تسخير قوى الطبيعة لخدمة الإنسان الحيوان، ولتقدم الإنسان الحيوان، وليس لتقدم الإنسان الإنسان»[50]، يتشكل عبر هذا القول، فعل كلامي، مفاده: أن الحضارة ترتبط بالشق الحيواني/ الغرائزي للإنسان، وأن الثقافة ترتبط بالشق الروحي الملائكي للإنسان، وهذا يمكن أن يكون إلغاء للعلم بطريقة ضمنية؛ فالعلم لا يخدم الجانب المادي فقط؛ بل قد يخدم الجانب الروحي، عبر تسهيل الطرائق، التي يكون فيها المتدين مرتاحًا أثناء تقربّه من الله، وهنا، نحن نقترب من فهم إدوارد سعيد، باعتباره مفهومًا بنيويًا، يتداخل مع مفاهيم أخرى؛ كمفهوم العلمنة، أو بمصطلح إدوارد الدقيق: **الدنيوية**، وكذلك؛ التاريخ، والعالم، والنص، واللغة، والأنسنة، والهوية، والهجنة، والجوهرانية، والإسلام[51].

من ثم؛ يرى الخوري أن الحضارات؛ هي مادية لا دينية محايدة؛ «إذ لا تتعارض حضارة الصينيين مع حضارة الهنود، ولكن الذي يحول الأمر إلى صراع، هم البشر من خلال الثقافة»[52]؛ فكأن دلالة هذا الفعل الكلامي الإخباري، مفادها: أن الثقافة هي الأساس والمصدر الأول في قيام الحرب، وهذا، في حيثياته، اتهام للدين، بطريقة غير مباشرة، بقيام الصراع، إن انطلقنا من تصورات إبراهيم الخولي، التي يقول فيها: إن الثقافة لها علاقة بالجانب الاعتقادي والديني.

49 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 09: 11.

50 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 09: 33.

51 بشير ربوح، الدين من منظور إدوارد سعيد؛ من النص الديني المتعالي إلى النص الدنيوي التاريخي، في الكتاب الجماعي، "فلسفة الدين؛ مقول المقدس بين الإيديولوجيا واليوتوبيا وسؤال التعددية"، منشورات ضفاف، دار الأمان، منشورات الاختلاف، لبنان- المغرب- الجزائر، 2012م، ص 380.

52 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 10: 05.

تظهر هذه الفكرة بطريقة صريحة في قوله: «الأمريكان أبادوا الهنود الحمر، وهم أحسن منهم ثقافة. إن الغرب؛ هو من يهاجم المسلمين، وهم في موقف دفاع»[53]، وهو، هنا، ينفي فعل الكلام الذي خلقته وفاء سلطان، والذي مفاده: أن الصراع يدور بين الخير والشر، وبين الأحسن والأسوأ؛ إذ لا علاقة للمثالي وبالدنيء، بقدر ما العلاقة محصورة في وجود مصلحة من عدمها.

يؤكد إبراهيم الخولي على فعل القضية، الذي تبناه في البدء، والذي مفاده: أنّ هناك صراعًا للحضارات وللديانات، قائم على أساس المصالح، وهذا يظهر في قوله: «الأمريكان أذلوا الأفارقة، واستعبدوهم، هل ذلك حضارة؟ هل ذلك تقدّم، بالمعنى الإنساني؟ الحضارة، في النهاية، وبشقها الثقافي؛ هي نمو في إنسانية الإنسان، وفي قيم الإنسان»[54]، ولعل الشق الأخير من هذا القول، يبيّن الموقف الإيديولوجي الشرقي؛ الذي يتبناه، والمستند على الجانب؛ الديني، والروحي، والثقافي في فهم خصوصيات الكون والمجتمعات.

يقدم، كذلك، سؤال ينحو منحى خطابه العام: «من المهيأ لفرض الصراع والبدء به، المسلمون؟ كذب من يقول هذا، وهو، هنا، ينطلق من منطق فهم العلاقة بين الأشياء، ليعرف ويميّز بين الحاكم والمحكوم؛ فهو يرى أن المسلمين في موقف المدافع لا المهاجم.

يرد على دعاة الحوار بين الغرب العلماني والشرق الديني، بصورة مجازية، هي: «هذا الحوار يراد له، أن يكون حوار الحمل مع الذئب»، وهي تقدّم دلالة أبلغ من الحقيقة ذاتها، رغم معارضتنا له في نفيه للحوار، الذي تعتبره الباحثة والناقدة الجزائرية آمنة بلعلى، أنه المنهج الأمثل للتواصل، وذلك عبر الإقناع المتبادل، الذي ينأى عن المخاتلات والتلاعبات الخطابية، فتقول آمنة بلعلى، في تواصلية وحوارية القرآن الكريم: «إن الخطاب القرآني قد حقق فعل الإقناع، بواسطة قوى أفعال الكلام، المنجزة من خلال العبارات، وما تحقق بدورها من آثار ونتائج، مهما كانت صفتها؛ فإن إيقاعها يبقى إقناع الآخر، ليس من باب إحداث الغلبة لطرف على حساب الآخر، ولكن من أجل الحوار والتواصل»[55]، وإن كان هذا البراديغم الحواري، الذي تقدّمه الباحثة بلعلى، ليس ما هو قائم في واقع وخطاب ندوات التسامح الديني؛ التي تظهر الغالب والمغلوب في مقام واحد، بغرض المخاتلة، وتضبيب الرؤى، وخلط الموازين مؤقتًا، وربما بغرض فهم خصوصيات الآخر من أجل القضاء عليه، لا فهمه من أجل استيعابه.

53 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 10: 30.

54 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 10: 46.

55 آمنة بلعلى، "الإقناع المنهج الأمثل للحوار؛ نماذج من القرآن والحديث النبوي"، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد 89، السنة الثالثة والعشرون، مارس/ 2003م، ص 206.

في الحقيقة؛ إن إبراهيم الخولي، كذلك، يقع بدوره، في جزء من خطابه هذا، فيما أسماه؛ الكلام الإنشائي، وما نسميه نحن؛ الجماليات الزائفة والخاوية من أية قيمة أو فكر معرفي، حين بدأ يستعمل مجموعة من الأفعال الكلامية، التي يمكن أن نصنفها في باب الوجدانيات، أو المفاخرات، وهذا عندما قال: «حوارنا مع الغرب، للأسف؛ لأننا لا نملك القوة المادية المكافئة لقوته لتردعه؛ إنّما يراد له أن يكون حوار الحمل مع الذئب، ولكننا نحن المسلمين (تخصيص)، لن نكون حملانًا على الإطلاق، مهما كان الخصم يملك من أساليب القوة، ومن أدواتها؛ لأنّ معنا من القوة المعنوية ما يفلّ حديده، ويكسر سيفه، ويرده على أعقابه خاسرًا وهو حسير»[56] (لنلاحظ الألفاظ الأخيرة من القول)؛ فاللفظ الأول: يحيلنا إلى عملية عقلية منطقية، أثناء إدراك علاقتنا نحن الضعفاء بالغرب القوي، ولعل المجاز الذي مثّل به، يقدّم دورًا معرفيًا في نقل هذه المعلومة بطريقة جمالية، مع الحفاظ على جانبها المعلوماتي والإيديولوجي، وما يمكن أن نصنفه، كما قلنا، في خانة الوجدانيات أو المفاخرات الشوفينية؛ هي تلك الأفعال الكلامية الأخيرة في هذا الخطاب، والتي لا تحمل قيمة معرفية واقعية، بسبب نسبة المجاز الطاغي عليها؛ إذ لا يمكن للقوة المعنوية، بأية حال، أن تفلّ الحديد، ولا أن تكسر السيف.

من ناحية ثانية؛ يردّ إبراهيم الخوري على وفاء سلطان، في مسألة التخلف بقوله: «لسنا متخلفين، من قال لك: إننا متخلفون؟ هم متخلفون ماديًا، ومتقدمون تكنولوجيًا، ولكن من قال لك: إن هذا هو معيار الإنسانية؟ الإنسانية: هي التي يتقدّم المسلمون بها، بالقيم والمبادئ، التي تفرزها، إن هذه القضية قضية إنسانية بأسرها، ولا بد أن نضع الأمور في نصابها، بعيدا عن الإنشائيات، وعن الدعاوى المغرضة، وعن هذا الكلام المرسل الذي لا سند له، وعن هذا الترديد، كالببغاوات، التي لا تع ما تقول»[57]، إن الفعل الكلامي الأول: هو فعل إخباري، وتكمن قوته الإنجازية، في نفي سمة أو دلالة التخلف عن الشعوب العربية الإسلامية من الناحية الثقافية الإنسانية، من منظوره الإيديولوجي. خصوصًا عندما يعمل نفس المنطق الذي يقيمه الغرب، في الحكم علينا بأننا متخلفون، مع تعديل بسيط في المعيار؛ فالغرب ينظر إلينا على أننا متخلفون حضاريًا؛ أي من الجانب المادي التكنولوجي، ونحن ننظر إليهم، على أنهم متخلفون من الجانب الديني الروحي. وهنا نتساءل: أين تتمحور دلالة التخلف؟ هل في الجانب الديني الروحي الثقافي؟ أم في الجانب المادي العلماني التكنولوجي؟ في الحقيقة؛ لا نستطيع، أبدًا، أن نعزل بينهما، أو نقيم بينهما

56 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 11: 33.

57 برنامج الاتجاه المعاكس، الدقيقة 12: 55.

فجوة؛ لأنّهما متكاملان من منظورنا، وإن كان الدين واللادين، يقعان في منطقة اللاتكامل؛ لأنّهما، أساسًا، متناقضين مبدئيًا[58].

على سبيل الخاتمة:

إنّ بحثنا هذا، جاء تركيزًا على الافتتاحية الحجاجية، حول أهمية موضوع النقاش، والتي قدّمها فيصل القاسم لبرنامجه، مع جزء مهم من الحوار، ولولا ضيق الوقت وكثرة الانشغالات، في مقابل المدة الزمانية التي يستحقّها كي نفي حقّه من النقاش والتحليل السليم؛ إذ اكتشفنا أنه يستلزم كتابًا بأكمله، من أجل تحليل ما يقارب ساعة، من الحوار والحجاج الدائر بين تيارين متنازعين، يدعيان أنّهما؛ مصدرا الحقيقة، وأنّ الآخر على باطل لا غير.

من أهم النتائج التي تحصلنا عليها في هذا البحث: أن الكفايات تتعاضد فيما بينها، لتدافع عن الأطروحة التي أراد المرسل إيصالها إلى المتلقي، والمتمثّلة في أهمية طرح مثل هذه المواضيع، من أجل الكشف عما هو خلف ستار المؤتمرات الدينية، التي تدعو إلى حوار الأديان، مما قد يثبت، أصلًا، بوجود صراع فيما بينها.

كذلك، من أهم الملاحظات التي لاحظناها في طبيعة الخطاب؛ مسلكية الحجاج، وهي: أنّ كلا الاتجاهين يقصي الآخر بطريقة ضمنية أو صريحة، مدّعيًا أنه مالك الحقيقة الكلية الشاملة؛ ولهذا كان هنالك تناقض واضح في حيثيات الخطابين، وخروج نوعي عن موضوع الحوار، وارتباطاته الكلية؛ فمرة تقول وفاء سلطان بوجود الصراع الحضاري والديني، ومرة تقول بعدم وجوده، كما أن ابراهيم الخولي وقع في نفس التناقض؛ حيث يقول مرة: إن الحضارة سبب الصراع؛ فينتقدها لأنها مادية، وحيوانية، وغرائزية، ومرة يرجع الصراع إلى الثقافة، التي اعتبرها الجزء الإنساني في الحضارة المادية.

لكن رغم كل هذه التناقضات، التي تحدث، أحيانًا، في بعض حيثيات الخطاب، إلّا أنه يمكن القول: إن الأفعال الكلامية التي استعملت لدى المُقدم والمحاورين، جاءت منسجمة إلى حد بعيد، ومناسبة للضرورة الحجاجية، التي يفرضها مقام التواصل التلفزيوني.

58 يقدّم علي عبود المحمداوي، قراءة نقدية لمشروع هابرماس الفلسفي؛ ليؤكد على مفهوم المجتمع الما بعد العلماني، الذي فهمناه على أنه: منطقة وسطى بين الدين واللا دين، مؤكدًا على ضرورة تجاوز العنف المضاد من السياسة العلمانية، التي تهدف إلى الإقصاء والتهميش للفكر الديني. ينظر علي عبود المحمداوي، هابرماس والمسألة الدينية، الوضع الديني في المجتمع ما بعد العلماني، في الكتاب الجماعي، فلسفة الدين مقول المقدس؛ بين الإيديولوجيا واليوتوبيا وسؤال التعددية، منشورات ضفاف، دار الأمان، منشورات الاختلاف، لبنان- المغرب- الجزائر، 2012م، ص 344.

قائمة المصادر والمراجع:

الكتب العربية:

- أحمد المتوكل، الوظائف التداولية في اللغة العربية، ط 1، دار الثقافة الدار البيضاء، 1985م.
- أحمد محمود نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2006.
- بشير ربوح، الدين من منظور إدوارد سعيد؛ من النص الديني المتعالي إلى النص الدنيوي التاريخي، في الكتاب الجماعي، «فلسفة الدين مقول المقدس بين الإيديولوجيا واليوتوبيا وسؤال التعددية»، منشورات ضفاف، دار الأمان، منشورات الاختلاف، لبنان- المغرب، الجزائر، 2012م.
- جون لانشو أوشتين، القول من حيث هو فعل، نظرية أفعال الكلام، ط 2، ترجمة: محمد يحياتن، عالم الكتب للنشر والتوزيع، تيزي وزو، 2001م.
- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط 1، المركز الثقافي العربي، المغرب- بيروت، 2000م.
- علي عبود المحمداوي، هابرماس والمسألة الدينية، الوضع الديني في المجتمع ما بعد العلماني، في الكتاب الجماعي، فلسفة الدين مقول المقدس بين الإيديولوجيا واليوتوبيا وسؤال التعددية، منشورات ضفاف، دار الأمان، منشورات الاختلاف، لبنان- المغرب، الجزائر، 2012م.
- فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب- لبنان، 2000م.
- مانفريد فرانك، حدود التواصل، ترجمة: عز العرب الحكيم، إفريقيا الشرق، الرباط- المغرب، 2003م.
- محمد الناصر العجيمي، اجتياز الحدود في مساءلة الخطاب السجالي، ط 1، المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب، تونس، 2010م.
- محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء- المغرب، 2010م.
- نبيل محمد صغير وكدير ليندا، إشكالية الهوية والمساواة ما بعد النسوية، ضمن كتاب «خطاب الما بعد في استنفاذ أو تعديل المشروعات الفلسفية»، تحت إشراف: د. علي عبود المحمداوي، منشورات ضفاف، منشورت الاختلاف، دار الأمان، ط 1، 2013م.

الكتب الأجنبية:

- michel mayer, langage et argumentation, edition hachette, paris France, 1982.

مقالات ومواقع إلكترونية:

مقالات:

- آمنة بلعلى، «الإقناع المنهج الأمثل للحوار؛ نماذج من القرآن والحديث النبوي»، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد 89، السنة الثالثة والعشرون، مارس/ 2003م.

مواقع إلكترونية:

http://www.youtube.com/watch?v=6-4pkXiE6JI
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=180194
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=162137
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=159296

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017